فقه الوزير الداعية

واستمع إلى طريف ما فهمه الفقيه المحدث والوزير العباسي الصالح ابن هبيرة الدوري رحمه الله من قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾[1] إذ يقول: تأملت ذكر أقصى المدينة، فإذا رجلان جاءا من بعد في الأمر بالمعروف ولم يتقاعدا لبعد الطريق.

❑❑

بستان ابن تيمية

يقول ابن القيم الجوزية محدثاً عن أستاذه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه القيم (الكلم الطيب والعمل الصالح) ما نصه: قال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟أنا جنتي وبستاني في صدري - يعني بذلك إيمانه وعمله - أين رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة.

ويقول: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه. إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة.

وقال بعض العارفين: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف. إن الملوك ليحكمون على الورى، وعلى الملوك لَتَحْكُمُ العلماء.

❑❑

(1) سورة القصص، الآية: 20.

جهاد عالم

كان للعلامة عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح واليقظة الإسلامية في الجزائر دور هام في إهاجة الجماهير ضد الاستعمار الفرنسي وأهل البدع والأهواء. أحسَّ المندوب السامي أنه يشكل خطراً مهماً عليهم فلا بد من إسكاته وشلّ حركته الفتية. فاستدعاه المندوب وقال له: إما أن تقلع عن تلقين هذه الأفكار، وإلا أرسلت جنوداً لإغلاق المسجد الذي تنفث فيه هذه السموم ضدنا، فأجابه الشيخ قائلاً: أيها «الميو» الحاكم إنك لا تستطع ذلك! واستشاط «الميو» غضباً وقال: وكيف لا أستطيع؟

قال الشيخ: إذا كنت في عرس علمت المحتفلين، وإذا كنت في مأتم وعظت المعزِّين، وإن جلست في قطار علمت المسافرين، وإذا دخلت السجن أرشدت المسجونين، وإن قتلتموني أفوز بالشهادة وتلتهب مشاعر المواطنين. فأنا معلم في جميع الميادين. فالأمة استجابت لداعي الله الذي يحييها، وخير لكم أن لا تتعرضوا لها ولدينها[1]. ولله در القائل:

ولدتك أمك يا ابن آدم باكياً والناس حولك يضحكون سرورا

فاعمل لنفسك أن تكون إذا بكوا في يوم موتك ضاحكاً مسرورا

❑❑

(1) مالك بن نبيّ مفكراً اصطلاحياً، أسعد السحمراني، ص: 60.

الخشية من الله وحده

قيل أن الخليفة العباسي المنصور أرسل إلى الإمام جعفر الصادق ﷺ رسالة قال فيها: لماذا لا تخشانا كما يخشانا سائر الناس؟ فأرسل له الصادق قائلاً:

ما عندنا من الدنيا ما نخاف عليه، ولا عندك من الآخرة ما نرجوك به، ولا أنت في نعمة فنهنئك عليها، ولا في نقمة فنعزيك فيها. فلمَ نخشاك؟

فأرسل إليه المنصور قائلاً: تجيئنا لتنصحنا.

فأرسل إليه الصادق قائلاً:

من أراد الدنيا فلا ينصحك، ومن أراد الآخرة فلا يصحبك[1].

❑❑

من الظالم؟

جمال الدين الأفغاني غني عن التعريف، وأقل ما يقال عنه أنه ما إن تطأ قدماه موضعاً إلّا كان كالبركان يشعل فيها الثورة ضد الاستعمار والمستعمرين. كان يقذف ناراً تلظى، لا كلاماً منمقاً معسولاً. لم يؤلف كتباً وإنما ألف عقولاً نيرة واستطاعت أن تبذر البذرة الأولى بعد انقطاع طويل عن الأصل البذرة الأولى واليانعة في الإصلاح والإرشاد وإعمال الفكر، وتعجبني كلمة له حين قيل له: إن المستعمرين ذئاب، فقال: «لو لم

(1) مجلة الدوحة القطرية، السنة (4)، العدد(39)، 1979م.

يجدوكم نعاجاً لما كانوا ذئاباً». وهذه كلمة جديرة بأن تذكر ولا تنسى كلما تحدث المحدثون بالجناية على الأمم والجماهير.

ويرحم الله الشاعر البكري حين يقول:

لا تعجبوا للظلم يغشى أمة
فتنوء منه بفادع الأثقال
ظلم الرعية كالعقاب لجهلها
ألم المريض عقوبة الإهمال

فمن الواجب القول لمن يشكون الظلم وهم قادرون على دفعه: إنكم أنتم الظالمون بل أنتم أظلم من الظالمين[1].

❑❑

مراتب الأصحاب

قيل: الأصحاب خمس:

1 ـ فصاحب كالهواء لا يستغنى عنه فهو يفيدك في دينك، وتلذك عشرته وتمتعُك صحبتهُ.

2 ـ وصاحب كالغذاء، ولكن ربما ساء طعْمُه ، وصعُبَ هضمُهُ، فهو الذي يفيدك في الدين والدنيا، لكنه يزعجك أحياناً بغلظته وثقل دمه وجفاء طبعهِ .

3 ـ وصاحب كالدواء، مرّ كريه، ولكن لا بد منه أحياناً فهو الذي تضطرك الحاجة إليه، وينالك النفعُ منه، ولا

(1) دراسات في المذاهب الأدبية للعقاد، ص: 218.

يرضيك دينُه، ولا تسليك عشرته.

4 ـ وصاحب كالصهباء، تلذ شاربها، ولكنها تودي بصحته وشرفه، فهو الذي يبلغك لذتك وينيلك رغبتك، ولكن يفسد خلقك ويهلك آخرتك.

5 ـ وصاحب كالبلاء، فهو الذي لا ينفعك في دنياك، ولا يمتعك بعشرته، ولا بحديث، ولكن وطن نفسك لإصلاحه[1].

□□

قيمة السكوت

السكوت في مواطن السكوت حسن، وإنما مأمور في الشرع، ولا يكون السكوت حسن إلّا في الأمور الذي نهى الشارع عن الخوض فيها والكلام بشأنها، فالسكوت في مواطن الخير والحق والصلاح جريمة لا تغتفر. فالساكت عن الحق شيطان أخرس. إذاً أطلق عنان لسانك في كل مواطن الخير والصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأفضل الكلمة هي كلمة حق عند سلطان جائر.

جاء في كتاب الظروف والظرفاء: قال إبراهيم المهدي:

إن كان يعجبك السكوت فإنه

قد كان يعجبك قيلك إلّا خيرا

(1) صور وخواطر، علي الطنطاوي.

ولئن ندمت على سكوتك مرة
فلقد ندمت على الكلام مرارا
إن السكوت سلامة لربما
زرع الكلام عداوة وضرارا[1].

❑❑

قصة الأسد المغرور

روى الشعبي: أنه خرج أسد، وذئب، وثعلب، يتصيدون، فاصطادوا حماراً وحشياً، وغزالاً، وأرنباً.

فقال الأسد للذئب: قسّم، فقال: حمار الوحش للملك (يقصد الأسد)، والغزال لي، والأرنب للثعلب.

فرفع الأسد يده وضرب الذئب ضربةً فإذا هو مجندل بين يديه، ثم قال الأسد للثعلب: قسّم هذا بيننا.

فقال الثعلب: الحمار يتغذى به الملك، والغزال يتعشى به، والأرنب له بين يديه. ثم قال الأسد: ويحك! من علمك هذه القسمة؟

فقال: القضاء الذي نزل برأس الذئب.

ولن يستقيم للمسلمين أمر ما دامت قصة الأسد والذئب والثعلب تتكرر في دنياهم[2].

❑❑

(1) استقيتها من كشكول (نثار من فوائد)، الزميل الشاعر: عبد الحكيم الأنيس.
(2) وسائل تقدم المسلمين، أحمد الشرباصي، ص: 54.

فقدان الحرية

إن حاكماً وفّر للناس مطالبهم الحياتية (من طعام، وشراب، ومسكن، ومركب) ولكنه لم يوفر لهم الحرية إنما أحال رعيته إلى حيوانات مُنعمةً، كما يكرم المرء حصانه أو كلبه؛ لأن فرق الإنسان عن الحيوان يكمن في الحرية.

وإن شجرة الإسلام لا تنمو إلّا في جو الحرية، فإذا غابت الحرية ضمرت وذوت، ولم تزهر ولم تثمر، وإن طلوا أوراقها بالخضرة، وعلقوا فيها فاكهة اصطناعية.

وليس ذلك الحاكم حراً يستعبد عبيداً بل هو أول العبيد؛ لأن شهوة القوة والتسلط والسلطان قد استعبدته[1] وصدق الفاروق ﷺ حين قال: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».

❑❑

فقدان الشخصية

حين تفقد الأمة شخصيتها فليس بينها وبين نهايتها إلّا خطوة واحدة. إذ أن الإنسان يعمل من أجل ذاته، بقواه الذاتية، وحين يفقد التحس بذاته أو الثقة بها فما[illegible]دا يعمل، ولماذا يعمل؟

كذلك الأمة تعمل من أجل شخصيتها، فإذا ضاعت الشخصية فلماذا وبماذا تعمل؟ إن شخصية الأمة هي روحها

(1) مجلة العربي، مقال (الله والإنسان والحرية)، د. حسان حتحوت، عدد (334)، 1986م.

الجماعية التي يستوحي منها كل فرد من أبنائها العزيمة والأمل.

حين يعشق الفلاح أرضه التي يحرثها ويداعبها حتى تخضر وتنتج، ولا يجد التراب كمادة جامدة، بل كرمز للأمة التي عاشوا ولايزالون عليها.

وحين يتعامل العامل مع آلات مصنعه وينسجم معها كأنه في جوقة موسيقية، فليس يتعامل مع الحديد، إنما مع البشر الذين سوف ينتفعون بها. والجندي حين يحتضن بندقيته ويقبلها ويقذف بنفسه في هوات الموت، فليس لأنه يعشق الموت أو يعبد النار التي في السلاح، إنما لأنها رمز أمته التي يتحس بروحها تجري في عروقه فتملؤها عزيمة وأملاً.

إن حبلاً قوياً يشد هؤلاء إلى بعضهم، وروحاً واحدة تجمع قلوبهم وتضيئها بقنديل الأمل.

ولكن إذا ضاعت شخصية الأمة ولم يعد يشعر أبناؤها بالروح الواحدة فإن كل واحد سيتخذ طريقاً مختلفاً.

والسؤال: ما هي شخصية الأمة وبأي شيء تتكون؟

إن وحدة القيم والثقافة والاشتراك في الهدف والتاريخ هي حدود شخصية الأمة المتميزة.

□□

الثقة بين الناس وقادتهم

للثقة بين الناس وقائدهم أهمية عظيمة جداً عند أصحاب الفكر السياسي، لذلك ترى في أنظمة الحكم الديمقراطي أن

الحكومة حاكمة ما دامت متمتعة بثقة شعبها التي تعرفها ببعض الوسائل. وهذا شيء معقول، إذ ما دام الناس واثقين فإنهم يستطيعون أن يسدوا النواقص، أما إذا فقدت الثقة، تلاشى كل شيء وفقدت الأمة قوتها، وهذا شيء مجرّب تاريخياً، إن فقدان الثقة يشل العمل السياسي ويميت حركة الأمة ويضعف روحها المعنوية، ويضرب اقتصادها وبالتالي يهوي بها، لذلك كان من أهم عوامل نجاح القائد للأمة: ثقة الأمة به، فإن وجدت تعوض كل النواقص.

يقول أحد الرؤساء المحنكين وهو «أبراهام لينكولن»:

«إذا فقدت يوماً ثقة شعبك فإنك لن تكسب ثانية احترامهم وتقديرهم، صحيح أنك تستطيع أن تخدع كل الناس بعض الوقت وأن تخدع بعض الناس كل الوقت، ولكنك لن تستطيع أن تخدع كل الناس كل الوقت».

ومن حكم كونفوشيوس حكيم الصين في هذا الصدد يقول:

«إن الحكومة ينبغي أن توفر لشعبها الثقة بها والحماية له، بواسطة القوة والطعام والشراب وما يلزم، قالوا: فإن لم تستطع أن تؤمن هذه الأشياء الثلاث؟

قال: تتخلى عن تأمين الطعام والشراب، قالوا: فإن لم تستطع تأمين الاثنتين الأخيرتين؟

قال: تتخلى عن تأمين القوة والحماية ولا تفرط في الثقة».

□□

شروط نمو الأمة

أشار أحد المفكرين بعد مشاهدة فاحصة لصفحات التاريخ إلى أن القواعد التي أرست عليها الأمم الغالبة والمتقدمة تكمن في اتباع عدة شروط تعد الأسباب الموجبة في دفع الأمة للتطور من التخلف إلى النمو ومن الركود إلى الازدهار، هذه الأمة لا بد لها من جو إيجابي تتوفر فيه هذه الشروط:

1 ـ أن ترتبط الأمة برسالة أو هدف كبير تؤمن به وتعمل على تحقيقه، وليس في التاريخ كله أعظم ولا أعمق تأثيراً في حياة الأمم من الرسالات والأهداف الدينية، فإنها تمنحها من الحوافز والآمال ما يشحذ عزائمها ويبعث هممها ويقوي سواعدها، لهذا كان الإيمان الصادق من أقوى الدوافع على زيادة الإنتاج وتحسينه وصيانته من عوامل التخريب والتعطيل.

2 ـ إن النمو لا يتحقق إلّا في ظل مجموعة حتمية من الأخلاق والفضائل من الأمانة والصدق والإتقان.

فليس بالذكاء وحده، ولا برأس المال وحده تتقدم الأمم ما لم يكن لديها رصيد كاف من الأخلاق.

3 ـ وشيء ثالث لا بد منه مع الأخلاق، هو أن تسود العدالة. فإن الكفء الذي يرى نفسه مؤخراً عن مكانه ولا يعطى حقه، في حين يأخذ الموالون ما لا يستحقون، هذا الكفء إما أن يتباطأ ويهمل وإما أن يهاجر على الرغم من حبه لوطنه، فيجب أن تعطي لكل

ذي حق حقه.

4 ـ ومثل العدالة: الأمن والحرية، ذلك لأن الخائف لا ينتج وإذا أنتج فلا يحسن، وكذلك المكره الذي لايعمل إلّا والسوط على رأسه.

5 ـ وشيء خامس هو شرط لازم للنمو: الاستقرار.

استقرار النظام، واستقرار الاتجاه، واستقرار القوانين حتى يستطيع كل إنسان تكييف آماله ومشروعاته وتصرفاته وفقاً لها.

6 ـ والشرط السادس أن تكون السيادة للعقل لا للعواطف والأهواء ولا للدعاية والديماغوجية وكسب التصفيق.

□□

بماذا تُخربُ الدول

قال الخليفة الراشدي عمر بن خطاب ﷺ:

«توشك القرى أن تخرب وهي عامرة، قيل: بماذا؟ قال: إذا علا فجارها على خيارها، وساد القبلة منافقوها»...

□□

مواقف الفتن

قال الصحابي الجليل حذيفة اليماني ﷺ: إياكم ومواقف الفتن! قيل: وما هي؟ قال: أبواب الأمراء: يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه.

□□

داء المسلم المعاصر

يقول العلامة جمال الدين الأفغاني رحمه الله:

لا ينطبق على الشرقيين: (مثلما تكونوا يولّى عليكم) بل حقّ عليهم قول: (مثلما يولّى عليكم تكونوا). وقيل قديماً: تدين الرعية بدين ملوكها. لكن إذا خلا من المفكرين والمصلحين، أو إذا رفضت الرعية حلول أفذاذها فعند ذلك توشك أن تخرب أو أن تلحق بركب الطواغيت كعبيد لنيل مطامعها...

فكلا النمطين مسخ لشخصيتها، وفقدان لهويتها.

❑❑

الأمة بغير العقيدة هباء

يقول شيخ الدعاة العلامة محمد الغزالي رحمه الله:

وبناء الأمم على غير عقيدة لا يساوي شيئاً، إن العقيدة في الكيان الاجتماعي كالقلب في الجسد الإنساني، وكالتيار في المصباح الكهربائي، وكالوقود في الآلة الدوارة.[1]

❑❑

الدبلوماسية الإسلامية

قال الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه: إني لأضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، قيل: وكيف

(1) قذائف الحق، محمد الغزالي، ص: 85.

ذاك؟ قال: إذا أرخوها شددت وإذا شدوها أرخيت.

□□

الإمام العادل كيف يكون؟

كتب أمير المؤمنين عمر بن العزيز ﷺ لما ولي الخلافة، إلى الحسن بن الحسن البصري أن يكتب إليه صفة الإمام العادل. فكان ما كتبه:

* اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف.
* والإمام العادل كالراعي الشفيق على إبله الرفيق الذي يرتاد لها أطيب المرعى ويذودها عن مراتع المهلكة، ويحميها من السباع، ويكفيها من أذى الحر والقر.
* وهو كالأب الحاني على ولده يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم في حياته ويدخر لهم بعد مماته.
* وهو كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها.
* وهو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله، ويُسمعهم، وينظر إلى الله ويُريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم.
* فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله: كعبدٍ ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال وشرد العيال فأفقر أهله وفرّق ماله.
* واعلم يا أمير المؤمنين: إن الله أنزل القصاص حياة

لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص منهم!

* واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر[1].

تمعّن يا أخي هذه النقاط العريضة التي وصفها أحد العلماء الأعلام لأحد قادتنا الذي أخذ على عاتقه ترجمة هذه النقاط إلى الواقع العملي في أيام خلافته، وكان مثله مثل الإمام العادل الذي وصف له صفاته الإمام الحسن البصري، ومن جيد صفاته أتذكر أنه كلّف أحد أعوانه بأن يراقبه وقال: تعهد الناس أن يجعل الحاكم عيوناً عليهم، لكنني أجعلك عيناً عليَّ، فإن وجدت مني ما يخالف الكتاب والسنة فنبهني وذكّرني ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2] وسبقه في هذه الخصلة الحميدة جده الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ حين قال: «رحم الله امرءًا يُهدي إلينا عيوبنا» هكذا يجب أن يكون القادة في حكمهم على الرعية «كلكم مسؤول عن رعيته» أفضل الصلاة وأزكى التسليم على قائله، وهكذا يجب أن يكون العلماء في إرشاد الرؤساء والمرؤوسين، فأين أنتم يا علماءنا من هذا!

❑❑

(1) مجلة رابطة العالم الإسلامي عدد(5) سنة (2) 1384هـ، مكة المكرمة 1964. من اختيار: بكر أحمد باقادر.

(2) سورة الذاريات، الآية: 55.

القلوب زجاجة

احرص على حفظ القلوب من الأذى
فرجوعها بعد النفار يصعبُ
إن القلوب إذا تنافر وُدّها
مثل الزجاجة كسرها لايُشعب

دعوة للخطباء

قال أبو بكر الصديق ﷺ: إن كثير الكلام يُنسي بعضه بعضاً.

قال ابن عبد ربه: إذا وعظت فأوجز، فإن أسرفت كنت أنت أولى بالموعظة من الموعَظ.

❑❑

أعمدة الحكمة السبعة

اجتنب سبع خصال يسترح جسمك وقلبك:

1 ـ لا تحزن على ما فاتك.

2 ـ ولا تحمل همّ ما لم ينزل بك.

3 ـ ولا تلم الناس على ما فيك مثله.

4 ـ ولا تطلب جزاء على ما لم تعملْ.

5 ـ ولا تنظر بالشهوة على ما لا تملك.

6 ـ ولا تغضب على مَنْ لا يضره غضبك.

obeikandl.com

7 ـ ولا تمدح من يعلمُ من نفسه خلاف ذلك[1].

❑❑

وصية الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي

أوصى الناصر صلاح الدين الأيوبي رحمه الله هذه الوصية القيمة كبير أولاده، وها نحن ندونها عسى أن يستفيد منها قادتنا في أمور ولاياتهم: «أوصيك بتقوى الله تعالى فإنها رأس كل خير، وآمرك بما أمر الله تعالى به، فإنه سبب نجاتك، وأحذرك من الدماء والدخول فيها، فإن الدم لا ينام، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم . فأنت أميني وأمين الله عليهم، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء، وأرباب الدولة والأكابر، فما بلغت ما بلغت إلّا بمداراة الناس، ولا تحقد على أحد فإن الموت لا يبقي على أحد، واحذر ما بينك وبين الناس، فإنه لا يغفر إلّا برضاهم، وما بينك وبين الله يغفر بتوبتك فإنه كريم»[2].

❑❑

وصية أخرى موجهة إلى القادة

دعني أضع بين يديك وصية توجه بها السلطان محمد الفاتح رحمه الله تعالى إلى ابنه أورخان، عندما شعر بدنو أجله، متمنياً أن يَعدُّها كل واحد من قادة المسلمين اليوم تطرق سمعه، وصية موجهة إليه عساها توقظنا جميعاً من دوامة هذا

(1) روائع وطرائف، إبراهيم النعمة، ج 1، ص: 21.
(2) مجلة التربية الإسلامية، عدد(10)، سنة(14)، 1972م.

التخبط الذي نعانيه:

«ها أنا ذا أموت، ولكن غير أسف؛ لأني تارك خلفاً مثلك، كن عادلاً صالحاً رحيماً بالناس جميعاً، وابسط على الرعية حمايتك بدون تمييز، واعمل على نشر الدين الإسلامي، فإن هذه هي واجبات الملوك على الأرض، قدّم الاهتمام بأمر الدين على كل شيء، ولا تفتر بالمواظبة عليه ولا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين، ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون في الفحش، وجانب البدع المضرة، وباعد الذين يحرضونك على الحقد والظلم، وسع رقعة البلاد بالجهاد، واحرس أموال بيت المال من أن تتبدد، واضمن للمعوزين قوتهم، ولا تمد يدك إلى مال أحد من رعيتك، وابذل عطفك وإكرامك للمستحقين.

وبما أن العلماء بمثابة القوة المبثوثة في جسم الدولة، فاعطف عليهم وشجعهم. حذار حذار... لا يغرنك المال ولا الجند، ولا تبعد أهل الشريعة عن بابك، ولا تمل إلى عمل يخالف أحكام الشريعة فإن الدين غايتنا والهداية منهجنا.

خذ من هذه العبرة: حضرت إلى هذه البلاد كنملة ضعيفة فأعطاني الله هذه النعم الجليلة، فالزم مسلكي واحذُ حذوي، واعمل على تعزيز هذا الدين المحمدي، ولاتصرف أموال الدولة أكثر من اللزوم»[1].

❑❑

(1) العودة إلى الإسلام، د.محمد سعيد رمضان البوطي، هو ينقل من كتاب =

جناية العلماء على الإسلام

تأمل معي هذه القصة التي ذكرها الشيخ محمد رشيد رضا قال: إن الخديوي إسماعيل استدعى رفاعة الطهطاوي وخاطبه: يا رفاعة، أنت أزهري تعلمت في الأزهر، وأنت أعرف الناس بعلمائه وأقدرهم على إقناعهم بما ندبناك له... إن الفرنجة قد صارت لهم حقوق ومعاملات كثيرة في هذه البلاد، وتحدث بينهم وبين الأهالي قضايا، وقد شكا الكثيرون إليّ أنهم لا يعلمون أيحكم لهم أم عليهم في هذه القضايا ولا يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم.... لأن كتب الفقه التي يحكم بها علماؤنا معقدة وكثيرة الخلاف، فاطلب من علماء الأزهر أن يضعوا كتاباً في الأحكام المدنية الشرعية تشبه كتب القانون في تفصيل المواد، واطراح الخلاف، حتى لا تضطرب أحكام القضاة، فإن لم يفعلوا وجدتني مضطراً للعمل بقانون (نابليون) الفرنسي!...

قال رفاعة: يا أفندينا: إني سافرت إلى أوروبا وتعلمت فيها (لقد قضى رفاعة خمس سنوات في باريس 1826 ـ 1831) وخدمت الحكومة، وترجمت كثيراً من الكتب الفرنسية، وقد شخت، وبلغت هذا السن ولم يطعن في ديني أحد، فإذا اقترحتُ الآن هذا الاقتراح بأمر منكم طعن علماء الأزهر في ديني، وأخشى أن يقولوا أن الشيخ رفاعة ارتد عن

= العاهل العثماني أبو الفتح السلطان محمد الثاني، تأليف علي همت، ترجمة إحسان عبد العزيز، ص: 142.

الإسلام آخر عمره إذ يريد تغيير الشريعة وجعلها مثل كتب القوانين الوضعية، فأرجو أن يعفيني أفندينا من تعريض نفسي لهذا الاتهام لئلا يقال مات كافراً.

فلما يئس الخديوي أمر بالعمل بالقوانين الفرنسية، والقصة المحزنة تحكي فساد الأمراء والعلماء جميعاً، وتكشف أن ما أصاب المسلمين من شتات وخزي ليس بلاءً يؤجرون عليه ولكنه عقاب يستحقونه ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[1].

ولقد كنت أسأل نفسي: نحن نكافح هذه القوانين المستوردة من الخارج وما تضمنه من فساد وإلحاد، فكيف دخلت بلادنا؟ وماذا كان موقف العلماء منهم يوم جاءت ولم يموتوا دون تحكيمها في مجتمعنا؟

ثم علمت أن موتنا الأدبي هو الذي مهد لقبولها واستقرارها[2].

❑❑

وسائل التأثير الغربي في الشرق الإسلامي

حدد الكاتب د. يوسف القرضاوي في عدة نقاط رئيسة الوسائل التي كان لها التأثير السلبي على المجتمع الإسلامي

(1) سورة هود، الآية: 117.
(2) قذائف الحق، ص: 137.